إرهاصات التَّوحد القبلي في شعر الجاهلية

الدكتور أحمد حسين العيثاوي

The indications of tribal unity in the poems of pre-Islamic epoch

PhD. Ahmed Hussain Al Ithawy

The indications of the tribal unity before Islamic period began to show in clear image in the tribal markets and poems festivals and among choosing the tribal choice and they had the great effectiveness in the cultural mixing among the poets whom they were the speakers of the tribes and those poets were calling a clear call for unity among Arabic tribes , and in the first raw was the poet (Luqait Ibn Ya'mur Al Abyary and Al A'khnas Al Taghlubi, and these indications for Arab Unity lead to the unity of Arabic tongues and prepared for the Holy Quran coming down in this language . The poets really lose the Arabic tribal callers .

Les appels de la fusion tribale dans la poésie avant- l'islam

Dr Ahmed Hussein Al Ethawi…

Les appels de la fusion tribale avant- l'islam a commencé à apparaître d'une façon évidente à travers les marchés tribaux et les clubes poétiques où on choisit la poésie signifiante tribale, tous avaient sans-doute un impact significatif dans le brassage intellectuel entre les poètes qui sont cosidérés la porte-parole des tribus, et qui ont affectivement appelé à l'unité entre les tribus arabes, d'eux étaient peut-être les précurseurs: **Loukaytt Bin Yaamar Al Abiaree, et Alakhanss Altaglebi,** et que ces **appels de la fusion** arabique ont abouti à commencer à unir les dialectes arabes pour les préparer à accueillir explicitement la langue de noble **Coran**, alors ces poètes étaient vraiment les appeleurs à la confusion tribale arabique…

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا بُدَّ لكل حدثٍ في الحياة من إرهاصاتٍ أولية توطئ إلى بروزه وظهوره وانتشاره وقبوله أو رفضه من قبل الناس الذين توجّهَ إليهم ذلك الحدث. والإسلام هو حَدث عظيم في تاريخ البشرية، حيث أُحدث تغيراً في حياة العرب والمسلمين، وقد اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى تهيئة أذهان الناس لقبوله والعمل به، ونشره بين الناس لتعمَّ حياة الوحدة والمحبة والتعاون، وهذا يقتضي سيادة الروح الجماعية لتكون مهاداً طيباً لما ينشده الإسلام؛ وبهذه المعاني الداعية إلى توْحيد قبائل العرب قبيل الإسلام جاءت قصائد بعض شعراء العرب قبل الإسلام، إذ دَعَت موضوعاتها إلى توحيد قبائل العرب، وحثها على الوقوف بوجه من يريد اغتصاب أرضها، وقتل أطفالها وشيوخها، وسبي نِسائها، وليسَ أدلُّ على صور التوحد القبلي من معركة ذي قار أو يوم ذي الذي وَحّدَ قبائل العراق في تصديها لجيوش كسرى وانتصارها عليها ــ برغم عدم تكافؤ قوة الطرفين ــ إذ كانَ للقبائل العراقية من بكر، وشيبان، وعَجل القدحُ المعلّى في النصر الحاسم الذي باركهُ لأهل العراق عرب الجزيرة العربية ولاسيّما أهل مكّة، فقد أُوثر عنْ الرسول محمدٍ (صلّى اللهُ عليه وسلّم): هذا أول يومٍ انتصفَ فيهِ العربُ من العَجم وبي نُصِروا. ويروى إنّهُ كان يدعو لأهلِ العراق بالنصرِ على عَدوِهم. كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه في الصفحة الثالثة والتسعين بعد المئة وفي الجزء الثاني منه.

إنَّ هذه المعركة وَقَعتْ قبيل الإسلام بوقتٍ قصير، ولعلّها كانت مصاحبةً لبدايات الدعّوة الإسلامية. وقد خلّد الشعراء العربُ الجاهليون انتصارات القبائل في هذه المعركة بقصائد خالدة لهذا اليوم الخالد الذي يُعدُّ الأساسُ لانتصارات العرب بعْدَ الإسلام. وهكذا كانَ للشعراء أثرهم الفاعل في الحياة العربية الاجتماعية في سِلّمها وحرْبها من خلال توثيق ذلك بأشعارها.

إنَّ هذا البحث الذي وَسَمْتهُ بـ (إرهاصات التوحَّد القبلي في شعر الجاهلية) جاء في مبحثين تسبقهما مقدمة وتعقبهما خاتمة وثبْت بمصادر البحث ومراجعه.

تناول المبحث الأول، وعنوانه: المجتمع العربي قبل الإسلام، مقومات التوحد، مظاهره. أما المبحث الثاني وعنوانهُ شعر التوحد القبلي وشعراؤه، فقد تناول أبرز القصائد ذات المضامين الداعية إلى توحد القبائل وتآلفها لمواجهة الأخطار المحدقة بها.

وقد اتبعتُ في ترتيب الشعراء العامل الزمني، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، حيث كانَ أول هؤلاءِ الشعراء لِقيط بن يَعْمرُ الأيادي، ثُمَّ الأخنسُ بن شِهابٍ التغلبي، وأخيراً الشاعر ميمون بن قيسٍ الأعشى وهو الذي عاش قبيل الإسلام؛ بل أدرك الإسلام وأراد الدخول فيه، إذ جاء وافداً على رسول الله؛ لكنه لم يَحْظَ بمقابلة الرسول الكريم حيث أغرته قريش بالمال فَغَلَّب دُنياهُ وماتَ كافراً.

وجاءت الخاتمةُ متضمنةً لأبرز النتائج التي توصّل إليها البحثُ.

الباحث

د. أحمد حسين العيثاوي

المبحث الأول

المجتمع العربي قبل الإسلام

سَكَنَ العربُ في حقب ما قبل في الجزيرة المسماة باسمهم، وهي رقعة واسعة من الأرض وهي ذاتُ بِقاعٍ متباينةٍ، تختلف بيئاتها اختلافاً يكادُ يجعل منها مواطن متعددة، وإنْ كانت مع ذلك موطناً واحداً متماسكاً، فما بين المحيط الهندي في أقصى الجنوب إلى ما بعْدَ دمشق في أقصى الشمال، وما بين الخليج العربي ونهري دجلة والفرات في الشرق إلى البحر الأحمر، بل إلى نهر النيل في الغرب كانت تُسيح قبائل هذه الأُمة العريقة في الأغوار والأنجاد، وفي السهول وفوق قمم الجبال وفي أجواف الصحارى وعلى سواحل البحار. يتضح لَنا من هذا النص أن بلاد العرب في العصر الجاهلي أو العرب قبل الإسلام تشمل جزيرة العرب الحالية وامتداداتها في العراق وبلاد الشام ومصر، وهي المسرح الذي مُثِّلت عليه فصول حياة العرب قبل الإسلام بوجهيها السّار والحزين(١).

وبَعْدَ أن وصفْنا البيئة الطبيعية للأرض العربية، ينبغي الحديث عن المجتمع العربي الذي عاش فوق هذه الأرض. بدءاً من مكوناته الاجتماعية فهو كأي مجتمع يتكون من وحدات اجتماعية تعرف بالقبيلة؛ إذ يرتبط أبناؤها بروابط عدّة، منها رابطة النسب والآمال المشتركة، وقد عرفت المظانُ اللغوية القبيلة : " جماعةُ من الناس يرجعون في نسبهم إلى ابٍ واحدٍ"(٢). وإنما سُميت قبائل تشبيهاً بقبائل الرأس(٣). ومِن هذا يتبينُ لَنا أن الأساس الذي تقوم عليه حياة العرب هي الأسرة الكبيرة أي التي ينحدر أبناؤها من أب واحد، وإن صلة القرابة الدموية هي الرابط الحقيقي بين أفراد ذلك المجتمع. ولعلَّ الولاء القبلي يشكل نواة للولاء الاجتماعي؛ إذ

(١) ينظر : مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد : ١-٢.

(٢) تاج العروس، الزبيدي : مادة (قبيلة).

(٣) م.ن.

التجمع القبلي غالباً ما يكون أكثر شبهاً بالنزعة الوطنية في عصرنا الحاضر على حد تعبير مصعب الراوي[١].

لقد كانت رابطة النسب بين أفراد القبيلة تمثل ذلك الشعور المتوقد عند تجابه الملمات قبيلة ما أو تجمعاً قبلياً، إذ هي "أحد أسباب الألفة والتناصر، وهم أحوج إلى ذلك حيث كانوا قبائل، فحافظوا على أنسابهم ليكونوا متظافرين على خصومهم، ومتناصرين على من شاقهم وعاداتهم"[٢].

وممّا لا شك فيه أن المجتمع العربي يتكون بشكلٍ عام من بدو وحضر، أهل وَبَرٍ ومَدَرٍ يستوى في هذه الحال عَربُ الشمال والجنوب، وجميع أنحاء الجزيرة[٣].

ويبدو أنَّ البدو الرُحل هم الأكثر في المجتمع العربي، وهم عادةً ما يسكنون الخيام، ويرعون المواشي، وينتقلون من مكانٍ إلى مكانٍ طلباً للماء والعشب. أما الحضر فهم الأقل. وهم سكان القسم الجنوبي من جزيرة العرب، وسكان مكة، وبعض الواحات المنتشرة هنا وهناك ولهم أكثر عادات البدو ما عدا الترحال.

كانت ديانة العرب الغالبة تقوم على عبادة الأوثان[٤]. وإن أساس هذه الديانة متأتٍ من تقديس العرب للبيت الحرام، فما يَظْعنُ أحدهم من مكة إلاّ وقد احتمل معه حجارة من الحرم تعظيماً له[٥]. وفضلاً عن هذا فإن بعض العرب ممن دانَ بالنصرانية واليهودية[٦].

مقومات التوحد عند القبائل : على الرغم مما كان يسود حياة العرب من عوامل الفرقة، فإن في حياتهم من المقومات ما يمكن أن يوحدهم، ويجمعهم بإطار عام من

(١) الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي : ١١.
(٢) بلوغ الأرب، الآلوسي : ١٨٢/٣.
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي : ٧/٤.
(٤) ينظر : تاريخ الرسل، الطبري : ٦١٤/١.
(٥) الأصنام، ابن الكلبي : ٦.
(٦) ينظر : المعارف، ابن قتيبة : ٦٢١.

الأُلفة ويكون بمثابة حزمة الأمان التي تحافظ عليهم، وتنطلق بآمالهم وتطلعاتهم وأحلامهم، وهذه المقومات هي الدعائم الرئيسة التي تستند عليها القومية.

وقد ذكر الجاحظ هذه المقومات المكونات بقوله: "إنَّ العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة، وفي اللغة والشمائل والهمّة، وفي الأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسجية فسبكوا سبكاً واحداً، وأفرغوا إفراغاً واحداً، وكان القالبُ واحداً تشابهت الأجزاء، وتناسبت الأخلاط، وحينَ صارَ ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسَبِ"(١).

حَقاً، إنَّ أرض العرب واحدة فإنَّهُ لا بُعد جغرافي، وكذلك لا بُعد سياسي بين أفراد قبائل الجزيرة وما والاها من أرض العرب الأُخرى، واللغة التي تتفاهم بها القبائل لغة واحدة مشتركة يفهمها الجميع، وفضلاً عن هذا فإنَّ للعرب سمات تميزوا بها، كالنخوة، والشهامة، والمروءة والعفة، وهذه المقومات يعتز بها كل عربي بغض النظر عن قبيلته.

إنَّ هذه المقومات التي ذكرها الجاحظ تُعدُّ بحقٍّ عناصر توحد للقبائل العربية في عصر ما قبل الإسلام.

ومن مقومات التوحد الأُخرى لدى العرب قبل الإسلام الكعبة ومكانتها الدينية معروفة عند العرب؛ إذ كانوا يطوفون بالبيت، ويمسحون الحجر الأسود، ويسعون بين الصفا والمروة، فَعَلى الرغم من تعدد الديانات، ولاسيّما ممن يتقربون للأصنام، فإنَّ العرب جميعاً لم يعبدوا إلاّ رباً واحداً، وإنما اتخذوا هذه الأصنام وسيلة زلفى. وأشار القرآن الكريم لطقوس الحج، إذ يقول الله تعالى واصفاً ذلك : ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ (٢).

---

(١) رسائل الجاحظ : ١١/١.

(٢) البقرة / الآية ١٥٨.

وتُعدُّ الأسواق التي كان يقيمها العرب في أرجاء الجزيرة العربية مقوماً مهماً من مقومات وحدة العرب، فَعلى الرغم من أنها تختلفُ من منطقة إلى أُخــرى إلاَّ أنهم كانوا ينتقلون إليها، ويقف وراء هذا التنقل دوافع كثيرة، منها طلب العلم أو مِنْ أجلِ المالِ أو قضايا اجتماعية أُخرى. ومِن أشهر هذه الأسواق سُوق عكاظ وموقعه بأعلى نجد قرب جبل عَرَفات، وكانت هذه السوق منتدىَ أدبياً أو اجتماعياً فضــلاً عن كونه سوقاً تجارية. يؤيد ذلك قول الشاعر أبي ذؤيبٍ الهذلي[١]:

إذا بنُى القِبــابُ علــى عُكــاظٍ وقامَ البيَــعُ واجتَمَــعَ الأُلــوفُ

تَوَاعَدْنا علــى عُكــاظٍ لننَزلنَّــهُ ولَــمْ تَعْلَــمْ إذا أَتــى حَليــفُ

وهكذا كانَ للأسواق أثرها الفاعل في التفاف قلوب العــرب علــى المحبــة بعضهم لبعضٍ، وهذا فضلاً عن كونها مصدر عيش الكثير منهم، إذْ يدلُّ هذا علــى عمليات تبادل تجاري كبير.

ولم يقتصر قيام الأسواق على منطقة دُون أُخرى، فقد كان يُقام سوق دومــةِ الجندل وموقعه بين الشام والحجاز، وسوق (ذي المجنة) أسفل مكة وسوق (ذي المجاز، وكانت قريبة من عكاظ، وسوق المشقر، وكذلك أسواق عمان وحضرموت، ومنها (الرابية) واليمن وبها عدة أسواق منها سوق عدن[٢].

وإذا كان عنوان الأسواق هو التبادل التجاري، فإنَّ لها أثراً آخر هو الجانب الثقافي الذي أدّى إلى التوحد اللغوي مما كان له الأثر الفاعــل فــي الحيــاة، إذ إنَّ (أعظم آثار الأسواق، قبل البعثة ــ وهو التوحد اللغوي الذي كان للشعراء والحكام فيه على مدى سنين متطاولة أبلغ الأثر في انتقاء الألفاظ وشيوعها في القبائــل)[٣]. وفضلاً عن التوحد اللغوي الذي تحدثه الأسواق التي كان العرب يقيمونها، فقد كان لها أثرٌ آخر هو إسهامها في حل كثير من المشاكل التي كانت تقــع بــين القبائــل

(١) شرح أشعار الهذليين، لأبي سعيد السكري : ٩٨/١-٩٩.

(٢) الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي : ١٦٥/٢.

(٣) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني : ٢٠٨.

العربية، يؤيد ذلك إشارة الحارث بن حِلِزّة إلى ما وقع من صلح بين بكر وشـيبان في سوق ذي المجاز، إذ يقول(١):

واذكروا حِلْفَ ذي المجازِ ومَـا قُـدِمَ فيـهِ العهـود والكفـلاءُ
حَذَرَ الجورُ والتعدي وَلَنْ يَنْـ ـقضيْ ما في المهـارقُ، الأهـواء

إنَّ هذه الأبيات تُذكِّر بما كان بينَ الأُخوة من علاقة طيبةٍ وحسن جوار وهي التي يجب أن يفتحوا صفحة للعلاقات الأخوية بينَ تلك القبائل. وتذكر أبياتٌ لزهير بن أبي سُلمى صُلح عبس في سوق عكاظ الأمر الذي أفرح الشرفاء، فقـد تَغَنّـى زهير بذلك(٢):

ألا أبْلِغَ الأحلافَ عنّـي رسَـالةً وذبيانَ هَلْ أَقْسـمتُمْ كـل مقْسَـم
فَلاْ تَكتُمَنَّ اللهَ ما فـي نُفُوسِـكمْ ليخْفَـى ومَهمـا يَكـتُمِ اللهَ يَعْلَـمِ

وفي قول الربيع بن ضبيع خير عبرةٍ للأجيال العربية، فَبَعْـدَ أن اصـطلح القوم على حكمه خطب في سوق عكاظ، وقال شعراً يخاطب فيه المتخاصمين مذكراً بوشائج القربى والرحم، حيث قال(٣):

أخاكَ أخـاكَ إنَّ مَـنْ لا أَخـاً لَـهُ كساعٍ إلى الهَيجاءِ بغيـرِ سـلاح
وإنّ ابن عَمِ المرءِ فـاعلمِ جَناحَـهُ وَهلْ يَنْهَضُ البازي بغيـرِ جنـاح

إنَّ هذهِ الأبيات ذاتِ وقعٍ جميل في نفس السامع وكأنها مطرقةٌ بيد تدقُ بيـد إرادة التصميم عَلى أبواب قلوب العرب في كل أقطارهم ومنذ ما قبل الإسلام وحتّى يومنا هذا تَعدُّ بحقٍّ مثالاً يقتدى وصورة من صور النخوة العربية التي نحنُ بـأَمسِ الحاجة إليها في حياتنا الحاضرة التي تشهد فرقةً بين العرب لا مثيل لها في تـاريخ العرب القديم؛ إذ يواجه العرب تحدي الدول الاستعمارية التي تعتدى أرضهم مُسْتَغِلَّة الفُرقة بينهم.

---

(١) شرح ديوان الحارث، تح هاشم الطعان : ٣.

(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتحقيق حجر عاصي : ١٠٩.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. نوري حمودي القيسي وآخرون : ٢٣٥.

وللأشهر الحُرم (المحرّم، رجب، ذي القعدة، وذي الحجة) أثرها ومدلوها في توحيد العرب، إذْ هي فرصةُ مراجعة النفس بعد توقف الحرب في هذه الأشهر، فهي إذاً مظهرٌ من مظاهر اجتماع كلمة الخير، فحين يرمي العرب أسلحتهم جانباً تعم الإخوة والسلام، وتسود الألفة والمحبة في القلوب وتهدأ النفوس، وحين ينتهك أحدهم حرمة هذه الأشهر فيلعنه العرب، ونرى الآخرين ينكرون فعله، بل يزدرد فعله ويستهجن. لذا سمت العرب حروب قريش وهوازن في عكاظ بحروب (الفجّار) لفجورهم باقتتالهم في أشهر الحُرم[١] وليس نبذ الحروب في الأشهر الحُرم هو الظاهرة المطلوب سيادتها؛ بل الحروب بين الأخوة عامة هو القانون الأمثل والمطلوب سيادته، لأنَّه المعبّر الحقيقي لقانون السلم الذي تريده القبائل العربية، ويمكن رصد ذلك من تجنب القبائل للحروب إلاّ بعد أن تحسب لذلك نتائجه مسبوقة بالنصح للآخرين بالتريث والتمهل عن طلب الحرب إلاّ بعد أن توصد كل أبواب السلام مصداق ذلك الصورة المشرقة التي عكسها قوم الفند الزماني، وهي الأخلاق الحميدة التي تنتهجها القبائل العربية، لقد دَعَا الفِنَّد إلى إتباع الأُسلوب الأمثل بالتشاور فيما بينهم. ولعلَّ الشاعر الزماني خير مَنْ صوَّر هذه المفاهيم حيث يقول[٢]:

صَفَحْنَا عن بني هِنْدٍ وقلنا : القومُ إخوانُ
عَسَى الأيّامُ أن يُرجِعْنَ قَوْماً كالذي كانوا

إنَّ أسلوب الترجي عند الشاعر يمثل موقفاً في تجنب الحروب، إذْ إنَّ القبائل التي تتقاتل قبل مدة هي قبائل عربية يجمعها شعبٌ واحد.

ومن المواقف الرائعة والجميلة والداعية إلى وقفِ الحرب وتبشيع صورها وآثارها المدمرة لكلا طرفيها موقف الشاعر زهير بن أبي سُلمى داعية السلام بين

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير : ٥٨٩/١.

(٢) شعر الفند الزماني، حاتم الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي : م ٣٧ ص ٢٥.

القبائل العربية ولاسيّما قبيلتي عبس وذبيان في حربهما الضروس داحس والغبراء، فقد دَعَا طرفيها إلى السلام بَعْدَما صوَّر لهما بشاعة الحرب، إذ يقول(١):

وَمَا الحربُ إلاّ مَا عَلِمْتُمْ وذُقْتُمْ وَمَا هوَ عَنْهَا بالحديثِ الرُجَّمِ
مَتى تَبْعَثُوها تَبْعثوها ذَميمةً وتَضْر إذا ضَرِيْتُمُوها فَتَضْرمِ
فَتَعْرُككُمُ عَرْكَ الرَحى بِثِقالِها وتَلْقحْ كِشافاً ثُمَّ تُنتَجْ فَتُتْئمِ
فَتَنْتجْ لَكُمْ غلْمانَ أشأمَ كلِّهُمْ كأَحْمرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتُفْطِمِ
فَتُغْلْ لكُمْ ما لا تَغِلُّ لأهلها قُرىً بالعِراق مِنْ قفيرٍ ودَرْهِمِ

ولإمرئ القيس صورةُ للحربِ التي تقوم بين القبائل حارقة الزرع والضّرعَ تاركة ورائها الحزنَ والسواد مخيماً على الشيوخ والأطفال والنساء، مقطّعة صلات القبائل إذ يقول(٢):

الحَربُ أولَ مَا تكونُ فتيةً تِسْعى بزينَتِها لكلِّ جَهُولِ
حتّى إذا استَعَرتْ وشبَّ ضِرامها عَادَتْ عَجُوزاً غيْرَ ذاتِ خليلِ
شَمْطاءَ جَزَّتْ رأسَها وتنكّرت مَكْروهَةً للشمِ والتقبيلِ

وهكذا شخّص الشاعر امرؤ القيس صورة بشعة للحرب، إذ رسم لها صورة فتاة جميلة يسرُّ منظرها كل من رآها حتى إذا بلغت أوجها عادت عجوزاً قصّت شعرها فبدت مكروهة المنظر من كل جوانبها.

إنَّ تصوير الشعراء للحرب بصورة بشعة هو دَعوة للسلام والمحبة والألفة. وبعد أن استعرضنا مقومات التوحد من خلال الصور التي ذكرتها المظان ينبغي التعرف على بعض صور التوحد العربي، وهي كثيرة نقف عند بعضٍ منها : من ذلك التحالفات التي كانت القبائل العربية تسعى لتحقيقها. ولعلَّ ما يدعو إلى التحالف هو النسب الذي يربط القبائل وبه يشعر أفراد الحلف الواحد إنهم أفراد أسرة كبيرة واحدة حتّى عُدَّ الكثير من القبائل النسب كناية عن هذه الأحلاف، وقد فسَّرت أسماء

(١) شرح ديوان زهير، تح حجر عاصي : ١٠٩.
(٢) ديوان امرئ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم : ٣٥٣.

بعض هذه القبائل، بأنها كانت في الأصل أحلافاً من قبائل شتّى : كالعباد، وتَنوخ[١]، والغساسنة[٢].

وكانت الأحلاف توثق. وكانوا " يدْعُون مَنْ يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمرِ وتبعيداً للنسيان"[٣]. وإنَّ العهود ينبغي أن تكون مقدسة، وإن لا يحنث بها، ويبدو أنَ وفَاءهم للحليف وعدم الغدر به، وتمسكهم الكامل بالعهد الذي يعطونه على أنفسهم جعل المتحالفين يعيشون في أمان واستقرار، وقد برز الوفاء الوفاء للحليف إبراز مفاخرهم، وبلغ استهجانهم للغدر إنهم كانوا يرفعون للغادر لواءً في سوق عكاظ[٤]. وفي هذه المعاني يقول الحادرة[٥]:

فسَمِيَّ، ويحْكَ! هلْ سَمَعْت بغَدْرةٍ رُفِعَ اللِّواءُ بها لَنَا في مَجْمَعِ
إنَّا نَعِفُّ فَلا نريبُ حليفَنَا ونَكفُّ شُحَّ نفوسَنا في المطمَعِ

فمن خلال هذه الأبيات يبدو أن الذي لا يلتزم بالأحلاف يُفْضح أمام جمهرة من الناس، ويعْلَمُ العربُ الآخرين بهِ إن هؤلاء القوم لا عهدَ لَهم ولا أمان، الأمر الذي يجب عَلى الآخرين أن يكونوا حذرين منه.

ومن الأدلة الواضحة على إيمان القبائل بمبدأ النصرة المتبادلة فيما بينها تقديم الإغاثة للمحتاجين، والذي تلتزم به كثير من القبائل إزاء بعضها البعض خلال موسم الجدب والقحط ولاسيّما في الظروف الاستثنائية التي تتعرض لها القبائل أيام الغزو. ولعلَّ في مدحِ الشعراء لممدوحيهم ودَعوتهم للتمسك بصور تقديم الإغاثة لمن يستحق أعلى مراتب العز والشرف. من ذلك ما فَعَلَهُ قتادة الحنفي الذي أتاه قوم طَرَفة بن العبد البكري يشْكونَ ما حلَّ بهم من المجاعة. وما كان منه إلاَّ أنْ بَذلَ لهم المساعدة، وأَعانهم على تجاوز مشكلتهم بكل ما يملك. لقد سجَّلَ طرفة بن العبد هذا الموقف بقوله[٦]:

---

(١) ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري : ٢٢٢-٢٢٥، والاشتقاق، لابن دريد: ١١/١.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي : مادة (غسان).

(٣) الحيوان، الجاحظ ٦٩/١.

(٤) ينظر : تاريخ العرب قبل الإسلام، د. محمد سهيل طقوش : ١٦٥.

(٥) ديوان الحادرة، تح ناصر الدين الأسد : ٥١.

(٦) ديوان طرفة، دار العلم : ٩٣.

أَبلـــغْ قَتَـــادةَ غيْـــرَ ســـائلهِ مِنْـــهُ الثـــوابُ وعَاجِـــلُ الشَّـــكْمِ
إنّـــي حَمَـــدتُكَ للعَشـــيرةِ إذْ جَـــاءتْ إليـــك مُرْقَـــةَ العظـــمِ
ألقـــوا إليـــكَ بِكـــلِّ أرملـــةٍ شَـــعْثَاءَ تَحْمِـــلُ مُنْقَـــعَ البُـــرْمِ
... ...
فَسَـــقى بـــلادَكَ غيـــر مُفسـدها صَـــوْبَ الغَمَـــامِ وديمـــةٌ تهمـــى

إنَّ هذه الأبيات تدلُّ على الهاجس القومي التوحيـدي لـدى أبنـاء القبائـل العربية، والذي كان يراود الأبطال العرب، فقد كانوا كُرماء عَلى أنفسِـهم وعَلـى أخوانهم.

المبحث الثاني

شعر التوحد القبلي وشعراؤه

للشعراء منزلتهم الرفيعة في قبائلهم، وحكمهم النافذ، وسلطانهم الغالـب، إذ هُمْ ألسنة القبيلة الناشرة لمفاخرها، والناطقة بأمجادها، والذائدة عن حياض القبيلـة وشرفها، وكانت القبيلة تُسرُ أيّما سرور حينما ينبغ في ربوعها شاعر من أبنائها(١)، وليسَ هذا فحسب؛ بل أن القبائل تهنئ قبيلة الشاعر، لأنَّ الشاعر وزير إعلام القبيلة آنذاك، فقد سجل الشعراء العرب جميع الوقائع التاريخية في عصر ما قبل الإسلام، وعبّروا عن مواقفهم مواقف أبناء القبائل الذين كانوا مُسْتائين من حال الواقع العربي للقبائل العربية الذي اتسمَ بالتناحر والتنافر. لقد دعوا العرب إلى نبذِ هـذه الحـال والتحول إلى وحدة الصف، وذلك من خلال قصائدهم التي مدَحوا فيها أبطال العرب التاريخيين أو رثوهم، أو حرّضوا القبائل للوقوف بوجهِ العُملاء.

ومَن شعراءِ العرب الذين دعوا إلى توحد القبائل العربية قبل الإسلام، ذلـك النفر الذين بدت واضحة دعواتهم التوحيدية في نصوصهم الشعرية ومـن خـلال حماستهم وحبهم لقومهم، ونذكرهم حسب التسلسل الزمني وهم لقـيط بـن يعمـر

(١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، أحمد الاسكندري : ٥٩، والحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي : ١٦٤-١٦٥.

الأيادي (ت ٣٨٠م)، والأخنس بن شهاب التغلبي (ت ٥٥٥م)، والأعشى (نحو ٦٢٤م)[١].

لقيط بن يعمر الأيادي : من الشعراء القدماء في العصر الجاهلي من الذين أنجبتهم أرض العراق. وله قصيدة مشهورة تُعرف بعينية لقيط، وهذه القصيدة تُعدُّ مثالاً حياً للشاعر الفدائي الذي ضحَّى بنفسهِ مِن أجل قومهِ العرب، إذ سبّب استشهاده الحقيقي هو شعوره القومي، وهو الموقف الذي عَرَفهُ عن استعداد الفُرس لغزو قبائل العرب في العراق ومنها قبيلته، الأمر لذي اقتضى مِنه أن يرسل بلاغاً سريعاً رسمَ من خلالهِ صوراً حافلة بالحيوية لذلك الجيش الغازي الذي تَتَراءى نذرُ الشر من طبيعةِ تكوينه، كما شخَّصته قصيدته الدالية، إذ يقول[٢]:

سَلاَمٌ في الصَّحِيفةِ من لقيط إلى مِنْ بالجزيرةِ من إيادِ

أَتاكُم مِنْهُم سُتُونَ أَلفاً يَزجُّونَ الكتائبَ كالجرادِ

وأما القصيدةُ العينية، فَتنظمُ في لوحات المقدمة الطللية، والرحلة التي يتوصل من خلالها إلى موضوع الحماسة لما بينهما من الصِلة والتلاحم، ومن ثُمَّ ختام القصيدة[٣].

ففي لوحة المقدمة يشخص الشاعر صورة حبيبته وهي تعيش واقعها غير المنسجم مع ما تقتضيه الحياة، إذ أن ما فيه من صدٍ وهجران وما تُسببهُ للعاشق من الهموم وما هو في حقيقة الأمر إلاّ هموم القبيلة التي طغت على معتاد حياته مما يراه من تمادٍ في حياتها، فيه غير مكترثة بما هيَّأهُ الأعداء لاستئصال شأفتها، إذ يقول[٤]:

---

(١) معجم الشعراء الجاهليين، د. عزيزة فوّال : الصفحات ١٣، ٢٢، ٣١٢، وينظر : شاعر الفداء والتحريض فيما يخص الشاعر لقيط : ٣٩.

(٢) ديوان لقيط : ٢٧-٢٨.

(٣) نفسه : ٣٠-٥١.

(٤) نفسه : ٣٠-٣٣.

يا دار عُمرة مِن محتلهـــا الجرعـــا هَاجَتْ لي الهمَّ والأحزانَ والوجعا

... ...

جرت لما بيننا حبل الشـــموس فـــلا يأســـاً مبينُـــا نـــرى ولا طمعـــا

... ...

فَمـــا أزالُ علـــى شـــحطٍ يـــؤرقني طَيْفٌ تعمد رَحلي حيثمـــا وضـــعا

إنَّ قصيدة لقيط هذه من القصائد التحريضية للعرب، لاسـيّما قبـائلهم فـي العراق، ودعوتهم على التكاتف والتلاحم من أَجل الحفاظ على وجودهم في أرضهم أرض الآباء والأجداد، وفي مثل هذه المعاني يقول الشاعر(١) :

صُـونوا جيـادُكم وأجلـوا سـيوفُكم وَجَدّدوا للقَسـي النبـلَ والشَـرَعا

أُذكوا العيونَ وراء السرحِ واحترسـوا حتّى تُرى الخيلَ من تعدائها رُجعَا

يَا قَـومُ إنَّ لكـم مِـنْ عِـزِ أولكـم إرثاً أشـفقتُ أَنْ يـودي فينقطِعـا

يَا قُوم لا تـأَمنوا ــ إنْ كُنـتُمُ غُيـراً عَلى نِسائكم كسـرى ومـا جَمَعَـا

يَـا قُـومُ بيضـتكم لا تفجَعَـن بهـا أنّي أخافُ عَليْكم الأزْلَـم الجـدعا

قُومُوا قياماً عَلـى أمشـاطِ أرجلِكـم ثُمَّ أفزعوا قد ينالُ الأمن من فزعـا

فَقَلِـــدوا أَمـــركم للهِ درُّكـــم رَحْبَ الذراعِ بأَمرِ الحربُ مضْطلعَا

ففي هذه الأبيات يدعو الشاعر قومه لملاقاة الأعداء، ويحرّضهم على ذلـك ولعَلّهُ يعني بكلمة قوم عامة القبائل العربية العِراق أي عربه، مستشـعراً حماسـهم وانتمائهم القومي مبيناً لهم ما ينوي كسرى من القيام به من غزو بلادهـم بجـيش جرار، ويحثهم كذلك إلى عدم الخلود إلى الراحة، بل يدعوهم بمباشرة مهمات إعداد الجيش من صقل السيوف، وإعداد الخيول، خيول المجابهة التي إذا ما تم النصر بها يتم الحفاظ عَلى إرث العرب. كما دعاهم إلى أخذ أهبة الاستعداد، وترك حياة الدعة والطمأنينة عَلى أن يسبق ذلك إسناد مهمة قيادة الجيوش إلى رجلٍ مـنهم أحنكتـه التجارب وعرّكته الأيام وعَرف حلوها ومرها.

(١) نفسه : ٤٢-٤٦.

ويختم قصيدته بتبرئة نفسهُ مما يوجه إليها من لَوْمٍ سواءً أكان ذلك من نفسه هو أو من الآخرين، إذ يقول(١):

هذا كتـــابي إلـــيْكم والنـــذير لكـــم لِمَنْ رأَى رأيهُ مِنْكُم وَمَن سَـــمَعَا
لَقَدْ بَذَلتُ نُصْحِي لَكـــم بِـــلا دَخَـــلٍ فاستيقظوا إنَّ خَيْر العلمِ ما نَفَعَـــا

وللمعاني الحماسية التي حملتها هذهِ القصيدة، فقد وَصَفتها المظـــان الأدبيـــة بأنها: (أجودُ قصائدِ الإنذار والتحريض)(٢).

ونضيف بأَنَّ هذه القصيدة يمكن أن تَعدُّ من معلقـــات العـــرب المشـــهورة المتقدمة؛ لأنها تسبِق معلقات شَعراء العرب في عصر ما قبل الإسلام بمدةٍ طويلةٍ. وقد وصف ناقد حديث القصيدة بأَنها: (صرخة قوميـــة وانتمـــاء صـــادق للتـــراب العربي، إذ مثّل الشاعر إخلاصاً لقوميته وشدة حرصه على قبيلته)(٣).

الأخنس بن شهاب التغلبي من شعراء القرن السادس الميلادي(٤)، أكثر شعره في الحماسة والفخر، ولا نغالي إذا قلنا إنه من رواد الشعراء الذين دعوا إلى توحيد القبائل العربية، وتغنّوا بوحدة العرب، فهو يفتخر ببلاده العربية الممتدة إلى ما وراء الشام والهابطة إلى محاذاة البحر العربي، فهو لم يفخر بقبيلته تغلب، بل عدداً مـــن قبائل العرب في مواطنها سهول الجزيرة العربية وسَواحل بحورها، وهذا ما سنراه في قصيدته التي يفخر فيها بقبائل العرب ومفاخرها قبيلة قبيلة، إذ يقول(٥):

لِكُـــلِّ أُنـــاسٍ مِـــنْ مَعَـــدٍ عَمَـــارةٌ عروضٌ إليْها يلْجَـــؤونَ وَجَانـــبُ
لكيزٌ لها البَحْـــرانِ والسِّـــيفُ كُلُّـــهُ وإنْ يأْتِها بأْسٌ مِن الهِندِ كـــارِبُ
وَبَكْرُ لَهَا ظهر العِـــراق وإنْ تِشَـــأْ يَحِلُّ دُونَها من اليَمامـــةِ حاجِـــبُ

---

(١) ديوان لقيط : ٥٠.

(٢) ينظر: الكامل فـــي اللغة والأدب، للمبرد : ٢٤٥/٢، الأغانـــي : ٩١٠٦/٦، والعقد الفريد: ٥/ ٢٦، الأوائل، أبو هلال العسكري /٧٧، لباب الآداب، للثعالبي : ١٩/٢، الأدب في الحيرة، د. أحمد العيثاوي : ٤٤.

(٣) شعر لقيط بن يعمر الأيادي، دراسة صوتية، د. قاسم راضي مهدي البريسم :١٥-١٦.

(٤) معجم الشعراء الجاهليين، د. عزيزة فوّال بابتي : ١٢.

(٥) المفضليات، المفضل الضبي : ٢٠٥.

وصَارَتْ تَميمٌ بــينَ قَــفٍ ورَمْلَــةٍ لَها مِنْ حِبــالُ منْتــاى ومَــذاهِبُ
وكَلْبٌ لَهَــا خبــتٌ فرَمْلَــةَ عَــالِجٍ إلى الحرّةِ الرّجلاءِ حيثُ تَحَــارِبُ
وغَسَّانُ حيٌّ عَــزِّهم فــي سِــواهُمُ يُجالِــدُ عَــنْهُمُ مقْنــبٌ وكَائِــبُ
وبَهَراءُ حــيٌّ قَــدْ عَلِمنــا مكَــانَهُم لَهُم شَرَكٌ حَوْلَ الرصــافَةِ لاحِــبُ
وغَارَتْ أيادٌ في الســوادِ ودُونَهــا بَرازيقٌ عُجــمٌ تبْتَغــي تُضَــارِبُ
ولَخمٌ ملوكَ النــاسِ يُجْبــى إلــيْهُمْ إذا قَالَ مِنْهم قَائِــلٌ فَهــو واجِــبُ
ونَحْــنُ أُنــاسٌ لا حَجــازَ بأَرضِــنَا مَعَ الغيثِ ما نُلقى ومَنْ هُوَ غَالِبُ
... ...
وإنْ قَصُرَتْ أَسْيافنا كــانَ وَصــلَها خُطانَا إلى القومِ الــذينَ نُضَــارِبُ
فللــهِ قَــومٌ مِثــل قــومي سُــوقهُ إذا اجتَمَعتْ عِنْدَ الملوكِ العَصائِبُ

حقاً إنَّ الأخنس التغلبي هو الأول بينَ شُعراء العروبة؛ بل هو الرائد في ذكر عَظَمةِ الأُمة التي هو أحدِ أبناء تلك الأُمة، أُمة العرب التي تتابعَ مجدها منذُ عصــر ما قبل الإسلام مروراً بالبعثة النبوية في إقامةِ حَضارةٍ عربيــةٍ إســلاميةٍ سَــجلتها مصادر التراث العربي بأَحرفٍ مِنْ نُورٍ إنها الحضارة التي تقع بين جناحي العَــالم في العصُور الوسطى مِنْ الصّين شرقاً إلى الأندلس غرباً، ولَولا بناتها الأوائلُ الذينَ دقّوا أُسسها دقاً قوياً ما بقيَ مِنْ آثارِ بُنيانِهِ يُصارع الحَدثان في الأندلس وَغيرها.

لَقد أشَّرَ الشاعر الأخنس التغلبيُّ الواقع الذي يتوق إليه العرب هــو واقــع التوحد بالرغم من تمسكهم القبلي داخل منظومة القبيلة وهذا ما يتطلبه الحال الــذي يعيش فيه العرب آنذاك، إنّهم بحاجة إلى التوحد القومي لمواجهة الظروف المحيطة بهم، ظروف الحروب والجفاف؛ لذا فهم أحوج ما يكونون لمن يثير فيهم هذا، ومن غير الشعراء يقوم به!.

ولما كانت اللغةِ العربية الموحَدة التي سَمتْ فوق اللغات المحلية، بل لغــات القبائل، فقد اصطنع الشعراء هذه اللغة ونَعْرفُ (إنَّ هؤلاء الشُعراء يتجولونَ فــي أرجاءِ شبه جزيرة العرب، وارتباطهم بتجمعاتهم الكبيرة، ولاسيّما إنَّ القبائل العربية متوزعة على جميع أرجاء الجزيرة العربية قد أسهموا في تأَصيلِ الكثير مِنْ القــيم

الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية اللازمة لنشأة أَي شعْبٍ مُتَّمسْكٍ، وفي التمكين للغةِ العربية عامَةً كي تَعْلَو سائر اللهجاتِ، وتُصْبِحُ قادرةً عَلى التعبير عنْ مقوماتِ ذلك الشعب)[١].

إذاً، اللغة العربيةُ هي الأداة التي عَبَّرَ فيها الشعراء في عصْرِ ما قبل الإسلام عن شعورهم القومي التوحيدي عَنْ أَخلاقهم العظيمة ولغتهم الجميلة، وقبائلهم المتوزعة مساكنها أقاليم الجزيرة[٢] وهذا هو ما ذكرهُ الأخنس في قصيدته التي ذَكَرْناها قبل سُطور، وَتناولناها بالتحليل حيثُ هي خَريطةُ سَكن القبائل العربية، وما تقوم به.

فَقبيلة بكرٍ تحمي العراق يمدها، عند الحاجة، العَربُ الآخرون كالذي حَصَلَ يوم ذي قَارٍ عِنْدما اجتمعت قبائلُ العرب إلى جانبِ قبيلة بكرٍ، إذ انتصرت عَلى الفرس[٣].

أمّا قبيلةُ تَميمٍ، فقَدْ اسْتوطنتْ أرضاً واسعةً من بلادِ العرب، وكذلك قبيلةُ كَلب، وَغَسْان فهم ملوك الشام، وبهراء خَططتْ طُرقَ حِمْصٍ، وأَياد سَكَنَتْ العراق وهي تُحارب الأعاجم، واللخميون ملوك العراق حَكَموا مِن عاصمتهم الحيرة[٤]. وهكذا، ذكر الشاعر القبائل العربية مازجاً بيْنَ أسْماءِ القبائل ومواضعها ممَّا أَفْضى صُوراً فنيّة.

ومِن الشعراء المشهورين الذينَ كانت قصائد مَنارات في الدعوة إلى توحد العرب بدءاً من قبائلهم الأعشى أبو بصير وينتسب إلى قبيلة بَكر بن وائل التي تمتد فرُوعها وبطونها في شرق جزيرة العربِ من وادي الفرات إلى اليمامة. وله قصيدةٌ يفْتخِرُ بيوْمِ ذي قار، وهوَ أَحدُ المفاخر العربية، إذ يقول[٥]:

---

(١) الشعر العربي وتحديات العصر، د. محمود الجادر (بحث) مجلة المورد، العدد الثاني/١٥.

(٢) ينظر: الشعر الإسلامي والأُموي، د. عبد القادر القط : ٣.

(٣) المفضليات : ٢٠٥.

(٤) م. ن : ٢٠٥.

(٥) ديوان الأعشى، شرح وتعليق د. محمد حسين : ٣١١.

وَجُنْدُ كِسْرى غَدَاةَ الحنو صَبَّحهم مِنَّا غَطاريفُ ترجي الموتَ فانصرفوا
لَقَــوا مُلَمْلَــةً شَــهْبَاءَ يَقْــدُمُها لِلْمَــوتِ لا عَــاجِزٌ ولا خَــرِفُ
فِيها فَــوارسٌ مَحْمُــودٌ لِقــاؤهُمُ مِثْــلُ الأَسَــنةِ لا ميْــلٌ وَلا كشــفُ

وبَعْدَ أنْ صوَّر في هذهِ القصيدة الانتصارات التي حققتها القبائــل العربيــة، وكان لَها شَرَفُ النزال والقتال تمنَّى مُشَاركةَ القبائل الأُخرى التي لم يَكُنْ لها شَرفُ القتال للفرس، إذ يقول(١):

لَوْ أَنَّ كُــلَّ مَعَــدٍّ كــانَ شَــاركنا في يَوْمِ ذي قَارٍ ما أَخْطاهُمُ الشرفُ

وهُناك حال نفرٍ ممن كان لهم تعاونٌ مَعَ العَدوِ، وهذا الموقف قد اســتنكره، بلْ رَفَضهُ الأعشى فَهُو يُدين موقف قيس بن مَسْعُودٍ لمشاركتهِ جيْش كِسْــرى فــي عِدوانه على العرب، إذ يقول(٢) :

أَقيسَ بن مَسْعودِ بن قيسٍ بن خالدٍ وَأَنْتَ أمروٌ ترجُو شــبابَكَ وائــلُ
أَطَورين في عَــامٍ غــزاةٍ وَرَحْلَــةٍ أَلا ليْتَ قيســاً غَرَّقَتْــهُ القَوابِــلُ
وَلَيْتكَ حَــال البحــرِ دونــك كُلَّــه وَكُنْتَ لُقىً تجري عليْكَ الســوائلُ
كَــأَنّكَ لَــمْ تشــهد قَــرابين جمّــةً تَعيــثُ ضِــباعٍ فــيهُم وَعَواسِــلُ

ففي هذه القصيدة يخاطب قيس بن مسعود مستنكراً فعله ــ أن القبيلة تؤمل وترجو شبابك (وهذا القول بعْد الحرب) فهل تخيّب مرتين مَرةً باصطحابك للفرس في غزوهم وعِدوانهم علينا ومرة بالرحلة إليهم بَعْدَ أن انتصرنا علــيهم، ألا ليْــتَ القوابل أَخْمَدتْ أنفاسَكَ وليْتَ البحر حَالَ بيننــا وبيْنــك أو ليتــكَ هَمْــلاً تجرفَــهُ السيول(٣)....

ويستمر في كيْلِ اللومِ لقيس بن مسْعود جزاء فعْلِهِ الشائن في خيانة قَوْمِــهِ مَرَّتين، مَرَّةً بمُشاركةِ الفرسَ الحَرْبَ ومرَّةً بزيارتِهم بَعْدَ انتصارِ العرب عليهم..

---

(١) ديوان الأعشى، تح د. محمد محمد حسين، وينظر : شروخ في مرآة الأسلاف، محمد عفيفي مطر : ١٢٩.

(٢) م. ن : ١٨٣، ١٣٩.

(٣) يُنظر : م. ن : ١٣٩.

إنَّ ما استشهد به من نصوص شعرية للتوحد القبلي يتميز بسماتٍ، هي سماتِ الشعر عامة، وفضلاً عَنْها فَقَدْ لَحَظْنا سمات أُخرى بَدَتْ جليةً للعيانِ، في مقدمتها الواقعيةُ والوضوح، ولعلَّ الموقف الذي يقصد الشاعر إيصالهُ إلى أبناء قبيلته والقبائل الأُخرى يقتضي منه الواقعية والوضوح في تبليغ ما يُريدهُ من قصيدته أي تصوير الواقع وإظهار أسراره وخفاياه وتعبيره(١).

ولعلَّ خيْر مثالٍ يوضّحُ ذلك قصيدتا لقيطٍ الدالية، والعينية، إذ يقول في أُولاهما(٢):

سَلاَمٌ في الصحيفةِ من لَقيطٍ إلى مَنْ بالجزيرةِ مِنْ إيادِ
بأنَّ الليث كِسْرى قَدْ أَتاكم فلا يَشْغلُكم سَوقُ النقادِ
أتاكُمْ منهم ستُونَ ألفاً يَزجُونَ الكتائب كالجرادِ

وَقولهُ في الثانية(٣) :

قُومُوا قياماً عَلى أمشاطِ أَرْجُلكُمْ ثُمَّ افْزعُوا قَدْ يَنالُ الأَمنَ مَنْ فَزَعَا
فَقَلَّدُوا أمْرَكُمْ للهِ دَرَّكُمْ رَحْبَ الذِّراعِ بأَمر الحَرْبِ مُضْطَلَعا

والميزة الثانية هي الغنائية، وإنَّ هذهِ الصفة هي الغالبة في الشعر العربي قبل الإسلام عَامةٌ، ولكن يمكننا تلمس نفسٍ ملحمي في بعض قصائد شعر ما قبل الإسلام حيث خَصْصها للحديثِ عن الحرب وأيامها، ولاسيّما قصيدة لقيط يَعمر ذات النَّفَس الملحمي، وقَدْ سَبَقَ وإنْ قُلّنا هي ملحمة العرب الأُولى، ولَعلَّ قِدَم عَهْدها أَدى إلى فقدانِ أبياتٍ أُخرى مِنْها، وقَدْ يُصْدِقُ ذلكَ أي ملحمية لقيطٍ مُعلَّقة عمرو بن كلثوم ذات النفس الملحمي، وقصيدة لقيط تَجَاوزتْ الستين بيتاً، وقَدْ افتتحها بِقولِهِ(٤):

يَا دَارَ عمْرةَ مِنْ محتلها الجَرعَا هَاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأحزانَ والوَجَعَا
تَامَتْ فُؤادي بِذاتِ الجزعِ خُرْعبةٌ مَرَّتْ تُريدُ بذاتِ العذبةِ البِيعَا

(١) يُنظر : الأدب ومذاهبه، محمد مندور : ٩٢.
(٢) ديوان لقيط : ٢٨-٢٩.
(٣) م.ن : ٤٦.
(٤) م. ن : ٣٠.

إنَّ اكتساب الشعر العربي قبل الإسلام لسمةِ الغنائية هَيأَتهُ لأنْ يكونَ نشيداً وطنياً قومياً توحيدياً؛ وذلك؛ لاتصال هذا الشعر بذات العربي وتعبيره تعبيراً صادقاً عَنْ مشاعره، وعواطفه، وأحاسيسه في ظل الإحساس بالانتماءِ القبلي(١).

ومن السمات الأُخرى التي يمكننا أن نلمسها في القصائد ذات النفس التوحيدي الوحدة الموضوعية، وما تتطلبه من التوافق والانسجام والتناسب مع طبيعة الأشياء(٢)؛ لكنه وعلى الرغم من تعدد موضوعاتها، إلاّ أنه يصبُّ في الجانب التوحيدي، من ذلك قول الأعشى لكسرى حين طلب الرهان(٣):

أَثْوى وقَصَّر ليلةً ليتزوّدا فَمَضَتْ وأخلفَ مِنْ قُتيلةَ موعدا
ومَضَى لحاجتهِ وأَصْبحَ حبلها خَلقاً وكانَ يظنُّ أنْ لنْ ينكُرا

وما ذكره المرأة مفتتحاً بها قصيدته إلاّ لأَنها جزءٌ من حياتهِ، ولأنها الشيء الذي يربطها واجب الدفاع عَنْها، إذْ هي عُرضة الذي ينبغي أن يصونه، وهذا ما تفانى العرب من أجله، ثُمَّ يقول(٤):

مَنْ مُبْلِغٌ كِسْرى إذا ما جاءَهُ عَنِّي مآلكُ مخْمَشَاتٍ شُرَّدا
آليتُ لا نعطيهِ مِنْ أبنائنا رَهْناً فَيُفْسِدهُم كَمَنْ قَدْ أَفْسَدا
حتَّى يُفيدُكَ مِنْ بنيهِ رهينةً نَعْشُ وَيُوْهنَكَ السّماكَ الفرقَدا

فعلاقة الوطن، والمرأة، والأبناء واحدةٌ.

ومن السماتِ الأُخرى التي يمكن للدارسِ رصدها في قصائد شعراء عرب ما قبل الإسلام ذات النفس التوحيدي هي نَدْرةُ استعمالها للمعرب، مِن ذلك استعمال الشاعر الأخنس التغلبي لبعضٍ من مفردات المُعرب، إذ يقول(٥):

وَغَارَتْ إيادُ في السوادِ وَدُونَها بَرَازيقٌ عُجْمُ تبتغي مَنْ تَضَارِبُ

(١) يُنظر: الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي، مصعب الراوي:١١٢.
(٢) عيار الشعر، ابن طباطبا : ١٢٤، وحلية المحاضرة، الحاتمي : ٢١٥/١.
(٣) ديوان الأعشى : ٢٢٧.
(٤) م.ن : ٢٢٧.
(٥) م.ن : ٢٢٩-٢٣٠.

الخاتمـــــة

بَعْدَ إنجاز هذا البحث الموسوم بـــ (إرهاصات التوحد القبلـــي فـــي شـــعر الجاهلية) يجدرُ بي ذكرَ أهم النتائج التي تم التوصل إليها وهي :

- عاش العربُ قبل الإسلام في رقعة الأرض التي سميت باسمهم، وكانت بيئـــات الأرض متباينة التضاريس؛ ولكنها لا تشكل حواجز طبيعيـــة تفْصـــل العـــربَ بعْضهم عن بعضٍ. وأنَّ هذه الأرض هي المسرح لحيـــاة العـــرب الاجتماعيـــة المكونة من وحْدات اجتماعيةٍ عُرِفت بالقبيلة؛ وعلى الرغمِ من ذلك الجو القبلي، إلاّ أنَّ هُناكَ نَوازع للتوحد القبلي لمواجهة عدو مشترك للقبائل جميعاً، يؤيد ذلك أدبيات العرب قبل الإسلام.
- هناك مقومات أشارت إليها المظان، وهي المقومات التي يقوم عليها توحد أبنـــاء القبائل العربية، وهي أنَّ العرب كانت ــ وما زالت ــ أُمة واحدةً، فاستووا فـــي التربة، وفي اللغة، والشمائل، وفي الهمَّة والأنفس، والحميـــة، وفـــي الأخـــلاق والسجية، فسُبِكوا سبكاً وافرغوا إفراغاً واحداً.
- بانت للتوحد بين القبائل العربية في عصر ما قبل الإسلام مظاهر للتوحد يقـــفُ عل رأسِها الأحلاف التي كانت تُعقد بين القبائل العربية التي احترمت تحالفاتهـــا حتى أصبحت لها نسباً، مثل : تنوخ، والعباد، وفضلاً عـــن هـــذا، فـــإنَّ إقامـــة الأسواق في أماكن متعددة من أرضِ العرب يشكل ظاهرةً مهمة مـــن ظـــواهر توحد القبائل، وإنَّ إقامة هذه الأسواق صار بمثابة منتدياتٍ أدبية وأثرها واضـــح في شدِّ العرب بعضهم ببعضٍ، يؤيّدُ ذلك قيام الشعراء بدعوة القبائل للسلام، ونبذ الحروبِ من خلال تبشيع صورها، ومدحِ الداعين لإيقافها؛ بل تفـــادي وقوعهـــا كالذي فعلهُ زهير بن أبي سُلمى في معلقته حين مدحَ من سعى لوقف قتال عبس وذبيان.
- وكان الشعراء دعاةً لتوحد القبائل من خلال إنشادهم للقصـــائد ذات المضـــامين التوحيدية القومية، وكان الرائد في هذا المجال شاعر عربي أنجبته بيئة العـــراق والذي حفِظتْ لنا المظان قصيدته العينية ومكملتها الدالية، وهما ذات مضـــامين

توحيدية قومية. وهناك شاعر آخر افتخر بقبائل العرب بعْدَما رسمَ لها خريطة سكنها في أقاليم الأرض العربية. وأردف هذين الشاعرين شاعرٌ آخر بقصائد يفتخرُ فيها بانتصارات العرب عَلى الفُرس وعَلى من تواطئ معَهم من العرب؛ أنه الشاعر الأعشى.

وهكذا كانت إرهاصات التوحد القبلي في شعر الجاهلية نواة لخلق تلكَ القوة العربية الإسلامية التي رسمت الخارطة السياسية في القرون الوسطى والتي صارت فيها السيادة للعرب المسلمين الذين أشادوا حضارة ما زالتْ بعض معالمها تُصارع الحَدَثان..

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم

- الأدب في الحيرة قبل الإسلام، د. أحمد حسين العيثاوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٨م.
- الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢هـ.
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤م.
- الاشتقاق، ابن دريد، تح عبد السلام محمد هارون، مصر، ١٩٥٨م.
- الأصنام، ابن الكلبي، ابن هشام محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ)، تح أحمد زكي، نشر الدار القومية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.
- الأغاني، الأصفهاني، ط١ الساسي.
- الأوائل، أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تح محمد الوكيل، دار أمل، المغرب، ١٣٦٥هـ ـ ١٩٦٥م.
- بُلُوغ الأرب في أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، دار الكتاب بمصر، د.ت.
- تاج العروس من جواهر القاموس الزبيدي، تح محمود محمد الطناحي، مط، حكومة الكويت.
- تاريخ الرسل والملوك، الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، طبعة سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.
- تاريخ الشعر العربي قبل الإسلام، د. نوري القيسي وآخرون، طبع على نفقة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
- تاريخ العرب قبل الإسلام، أ.د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، الحاتمي (ت ٣٨٨هـ)، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٩م.
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت، د.ت.

- الحيوان، الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ١٩٤٠م.
- ديوان امرئ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٨٤م.
- ديوان الأعشى الكبير، تح محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية، ١٩٥٠م.
- ديوان الحادرة، تح ناصر الدين الأسد، دار صادر، د.ت لسنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
- ديوان الحارث بن حلزة، أعاد تحقيقه هاشم الطعان، مط الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م.
- ديوان طرفة بن العبد، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له د. عمر فاروق الطباع، دار القلم، (د.ت).
- ديوان لقيط الأيادي، تح خليل العطية، مطبعة الجمهورية، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.
- رسائل الجاحظ، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.
- شاعر التحريض والفداء، لقيط بن يعمر الأيادي، حياته، عينيته، د. أحمد الربيعي، مطبعة الأُمة، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
- شرح أشعار الهذليين، لأبي سعيد السكري، تح عبد الستار أحمد فرّاج، القاهرة، د.ت.
- شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى، شرح وتحقيق حجر عاصي، دار الفكر العربي، ط الأولى، لسنة ١٩٩٤م.
- شروخ في مرآة الأسلاف، محمد عفيفي مطر، دار الرشيد، ١٩٨٢م.
- الشعر الإسلامي والأُموي، عبد القادر القط، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٤م.
- الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي، مصعب الراوي، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٧م.

- شعر لقيط بن يعمر الأيادي، دراسة صوتية، د. قاسم راضي مهدي البريسم، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تح طه الحاجري، ومحمد زغلول، شركة الطباعة، ١٩٥٦م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)، مط الاستقامة، د.ت.
- لباب الألباب، الثعالبي، تح قحطان رشيد صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨م.
- مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م.
- المعارف، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تح ثروة عكاشة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، ١٩٥٥م.
- معجم الشعراء الجاهليين، د. عزيزة فوّال بابتي، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٨م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.
- المفضليات، المفضل الضبي (ت ١٦٧هـ)، تح أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م.
- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، أحمد الإسكندري وآخرون، دار المعارف، د.ت.

الدوريات:

- الشعر العربي قبل الإسلام وتحديات العصر، ج. محمود عبد الله الجادر، مجلة المورد /١٥.
- شعر الفند الزماني، حاتم الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي، م ٣٧.